ÇEKMECE İZÜ SOSYAL BİLİMLER DERGİSİ, Cilt 4: Sayı 8-9 2016: 303-314

البعد اللغوي في منهجية التفسير عند التابعين

Abdulmuttalip ARPA[1]

خلاصة

إنّ كون جيل التابعين الجيل الصالح الثاني بعد الصحابة في تاريخ الفكر الإسلامي قد أكسبهم مزية المرجعية لدى العلماء المسلمين، لكن وجهة وطريقة تفكير التابعين في البحث عن حل للمستجدات والأمور الطارئة تغيرت إلى حدٍّ كبيرٍ نتيجة دخول ثقافات ومفاهيم جديدة تفاعلت مع الأفكار الإسلامية بعد الفتوحات ونتيجة للتجاذبات الداخلية الاجتماعيةً والسياسية، فمبادئ الخضوع والإذعان الخالص التي توارثوها بدأت ولو بشكل جزئي تتغير نحو التحقيق والبحث.

ومن هذا المنطلق فإننا نسعى من خلال هذه المقالة إلى الكشف عن منهج التابعين في البحث عن حلولٍ باعتمادهم على المصدر الرئيسي القرآن وذلك من خلال اللغة وفقهها وكيفية فهمها وتطبيقها، وإنّ بيان دور اللغة في بناء المعنى على أساسٍ سليم وتوضيحَ دور التابعين وآرائهم لا شكّ أنه يُفيد الباحثين في مجال التفسير وعلومه.

الكلمات المفتاحية: القرآن، التفسير، التابعين، اللغة العربية.

TABİİN TEFSİRİNİN FİLOLOJİK BOYUTU

Özet

İslam düşünce tarihinde tabiin neslinin sahabeden sonra ikinci hayırlı nesil olarak addedilmesi alimlerin düşüncelerinin meşruiyyeti noktasında onları önemli bir mercii haline getirmiştir. Ancak bir taraftan artan fetihlerle birlikte yabancı kültürlerle yüzleşme üzerinden oluşan yeni fikri izdivaç, diğer taraftan da sosyal ve siyasal alandaki iç çekişmelerin neticesinde ortaya çıkan sorunlara çözüm arama hususları tabiin dönemi düşüncesinin çehresini önemli derecede değiştirmiştir. Artık öteden beri devam edegelen o saf teslimiyetçi zihniyet kısmen de olsa yerini sorgulama ve yeni arayışlara bırakmıştır.

İşte bu makalede Tefsir Tarihinde önemli bir yer işgal eden Tabiinin sözkonusu yeni sorunlara çözüm bulma sadedinde Kur'an tefsirinde bir kaynak olarak başvurduğu Arap dilini nasıl ele alıp kullandıklarını incelemeye çalışacağız. Manayı sağlam zemine oturtma imkanı sağlayan dilin Tabiin tarafından nasıl yorumlandığı hususu şüphesiz tefsir araştırmacılarına önemli bir fikir verecektir.

Anahtar Kelimeler: Kur'an, Tefsir, Tabiin, Arap Dili.

[1] Doç. Dr. İstanbul Sabahattin Zaim Üniversitesi, İslami İlimler Fak. Öğretim Üyesi.

المقدمة:

لم تكن الحاجة في عهد الصحابة رضي الله عنهم قائمة إلى الغوص في كثير من ألفاظ القرآن الكريم من حيث دلالات مفرداتها، أو من حيث معانيها ومقاصدها، إلا بالقدر الذي يطرأ عليهم ويكون في ظاهره مشكلاً أو غريباً؛ بسبب ندرته في لسانهم، أو بسبب تغاير دلالاته المعنوية عن مقتضى اللسان العربي، بسبب الاستخدام الشرعي للغة، وهذه قضية طرأت إبان العهد النبوي الكريم لدى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعلاً، وناقشها العلماء المحققون فكراً وتنظيراً، واختلفوا في مدى العلاقة بين المعنى الشرعي للفظ وأصله اللغوي على ثلاثة مذاهب2:

المذهب الأول: أن الشارع نقلها عن مسماها في اللغة.

المذهب الثاني: أنها باقية على ما كانت عليه في اللغة إلا أن الشارع زاد في أحكامها.

المذهب الثالث: أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف، فهي بالنسبة لأهل اللغة مجاز، وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة.

التحقيق في هذه المسألة أن الشريعة لم تنقل الألفاظ عن اللغة ولم تغير دلالاتها، وإنما قيدتها بمقتضى مقاصدها البيانية والموضوعية، ومن ذلك على سبيل المثال مفهوم الصلاة يدل على الدعاء بمقتضاه اللغوي، وأما بمقتضى الشرعي فهو أقوال وأفعال مبتدأة بالتكبير مختتمة بالتسليم بنية التعبد لله تعالى، فهنا الصلاة لم تنقل وإنما قيدت بأوصاف وقيود، ولا شك أن الدعاء منزلته في الصلاة ظاهرة لمن يعقلها ويدرك مقصودها.

ومرجع انتفاء حاجة الصحابة إلى الخوض في الأبعاد اللغوية فيما ذكرنا أنهم رضي الله عنهم كانوا مستغنين عن ذلك بمقتضى سليقتهم العربية، قال أبو عبيدة رحمه الله: " فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من وجوه و التلخيص"3، وحتى الوقائع التي ظهرت فيها الحاجة إلى بيان النبي صلى الله عليه وسلم بسبب الإشكال الذي طرأ عليهم في فهم بعض الآيات، لم يكن مرجع الإشكال فيها إلى مقتضاها اللغوي، وإنما بسبب الحقيقة الشرعية التي ظهرت منهج القرآن إبان التنزيل القرآني على النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا لا شك أحد جوانب إعجازه البياني الذي أعجز العرب الفصحاء الأقحاح في ذلك العهد، ومن ذلك ما جاء في الصحيح من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)[الأنعام: 82] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس هو كما

---

[2] انظر: إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر، الدكتور عبد الكريم بن علي النملة، دار العاصمة، الرياض، ط1، 1417ه/1996م، ج5ص38.

[3] مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ، ج1ص8.

تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)[لقمان: 13]"4.

فهذا مثال من الأمثلة اليسيرة التي أشكلت على الصحابة، ومرجعها في الحقيقة فهمهم بمقتضى اللغة أن الحكم عام وهو عدم التلبس بالظلم مع الإيمان يفضي إلى الأمن يوم القيامة، وجاء هذا الفهم أخذاً من قاعدة لغوية عامة وهو أن النكرة في سياق النفي تكون عامة، فالفهم الذي تلبسوا به لم يكن خاطئاً من جهة اللغة، وإنما جاء مغايراً لمقصود الشارع، ولهذا صحح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المفهوم بمقتضى الحقيقة الشرعية وليس اللغوية، وهذا الذي يلزم في فهم الخطاب القرآني، أن تعارض الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية يفضي إلى ترجيح الشرعية؛ لأنها هي مراد الشارع، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم"5، فهذا دليل على أن الصحابة الكرام لم يكن يطرأ عليهم إشكال في فهم القرآن من جهة اللغة، وإنما من جهة الحقائق الشرعية؛ فقد كانوا رضي الله عنهم عرباً فصحاء أقحاح، ولم تختلط بهم العجمة التي ظهرت فيمن بعدهم، ولذلك ما احتاجوا كثيراً إلى تفسير آيات القرآن الكريم لأنها ظاهرة لهم بمقتضى لسانهم العربي الفصيح.

المبحث الأول: تفسير التابعين: الأهمية والمميزات:

وبالانتقال إلى عصر التابعين6، -الذي ينتهي بسنة 181ه كما ذكر بعض العلماء7-، وهو مجال بحثنا نجد السمت المنهجي العام لم يختلف كثيراً عن سمتهم في عصر الصحابة؛ بحكم كونهم تتلمذوا في مدارسهم التفسيرية، كما هو الشأن في مدرسة ابن عباس بمكة، ومدرسة عبدالله بن مسعود بالكوفة، ومدرسة أبي بي كعب وزيد بن ثابت بالمدينة، إلا أن هناك ملمحاً ندركه في هذا العصر جعل عصر التابعين يختلف قليلاً عن

---

[4] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، دار ابن حزم، بيروت، 1430ه/2010م، رقم: 197.

[5] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1425ه/2004م، ج7ص286.

[6] تجاوزنا الوقوف عند المفهوم والتعريف بالتابعين، وبيان مراتبهم؛ لأن البحث ذو طبيعة موجزة، ولا شك أن الوقوف عند المفاهيم وبيان المكانة والمراتب يقتضي الإسهاب والإطناب في ذكرهم رحمهم الله تعالى، ويكفي أن نقول في هذه الحاشية بشأن مفهوم التابعين وتعريفهم: إن التابعي هو من لقي الصحابي، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن طول الملازمة أو صحة السماع أو التمييز ليس شرطاً في وصف التابعي.
انظر: نزهة النظر توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تحقيق د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، طبعة خاصة بالمحقق، الرياض، ط1، 1422ه/2001م، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ص143.

[7] التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد، أ.د.عبدالغفور محمود مصطفى جعفر، دار السلام، القاهرة، ط1، 1428ه/2007م، ص470. mad. DİA, c. 39, s. 329, İstanbul, Ulu, Arif, 'Tabii' 2010;

عصر سابقه من حيث مصادر التفسير وطبيعة المنهجية التي سار عليها التابعون، بمعنى أن هناك تأصيلاً وتأسيساً في الوقت ذاته ظهر بصورة جلية استقراء وتتبعاً من المسلك المنهجي الذي أصله أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وسار عليه التابعون، ولذلك حينما نقف عند المصادر التفسيرية لدى التابعين، نجد أنهم اعتمدوا في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في الكتاب نفسه وفق منهجية تفسير القرآن بالقرآن وهو بعد اجتهادي في أصله، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى8، والمصدر الأخير جاء جله مبنياً على الأصول والقواعد التي تقضي بها اللغة العربية وعلومها.

وبالنظر إلى هذه المصادر التي استند عليها التابعون في تفسيرهم، ومقارنتها بالمصادر التي اعتمد عليها الصحابة رضي الله عنهم، نجد أن مصادر التفسير لدى التابعين لم تكن مختلفة تماماً عن قسيمتها عند الصحابة رضي الله عنهم، فلم يكن ثمة فارق كبير بين منهج الصحابة ومنهج التابعين، فقد تلقى التابعون تفسيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

أبرز مميزات تفسير التابعين:

بموجب السمت العام الذي تميزت به منهجية التفسير عند التابعين، نجد أن هناك جملة من المميزات التي اصطبغت به هذه المنهجية بمختلف مدارسها، علماً أنه ليس بالضرورة أن تكون هذه المصادر كلها على نسق واحد من حيث الاعتماد في جميع المدارس، بل تتفاوت في مدى اعتماد بعض المصادر فيما بينها، وأهمها:

أولاً: دخول الإسرائيليات في التفسير، ومرجع ذلك الإباحة النبوية للرواية عن بني إسرائيل بعد الحظر الأول الذي كان منه عليه الصلاة والسلام، فقد صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"9، بالإضافة إلى جملة أسباب أخرى، منها:

1- عنصر التشويق

2- عدم وجود النص المرفوع

3- الجمع بين ما ورد في القرآن وما ورد في الكتب السابقة

4- توضيح المبهم

5.10- عدم ظهور الإنكار الشديد في عصرهم

---

[8] التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسن الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، 2000م، ج1ص76.

[9] أخرجه البخاري، كتاب الإنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، الرسالة العالمية، بيروت، ط1، 1432ه/2011م، رقم: 3461.

[10] تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة، الدكتور محمد بن عبدالله الخضيري، دار الوطن للنشر، الرياض، ج2ص895-900.

وهذا المصدر تفاوتت فيه مدارس التابعين من حيث تبنيه والاعتماد عليه، وأكثر المدارس اعتماداً هي مدرسة التابعين بمكة11، وهي مدرسة تتلمذت على يد ابن عباس رضي الله عنهما، وكان معروفاً بسؤال كعب الأحبار رحمه الله.

ثانياً: زيادة الحاجة إلى تفسير كثير من الآيات التي لم يتناولها الصحابة رضي الله عنهم لظهور معناها عندهم، فزاد التابعون تفسير ما احتاج الناس إلى تفسيره، ومرجع ذلك اتساع الفتوحات الإسلامية ودخول كثير من العجم في الإسلام12.

ثالثاً: الاحتفاظ بطابع التلقي والرواية، وإن كانت هذه الرواية ذات صبغة خاصة، فأهل كل مصر يعنون بشكل خاص بالرواية عن إمام مصرهم13.

المبحث الثالث: أنماط التفسير اللغوي عند التابعين:

من الأهمية ونحن في سياق البحث في المنهجية التفسيرية عند التابعين رحمهم الله، أن نتساءل: هل كان البعد اللغوي يعد في الأصل عماداً لهذه المنهجية أم أنه لا زال لم يكن له حضوره القوي فيها؟ وهذا في حقيقته يستدعي النظر في النسق العام التفسيري عند التابعين من خلال آثارهم وأقوالهم التفسيرية، والأنماط اللغوية التي اعتمدوها.

لقد ظهرت ظهرت الحاجة إلى شرح غريب مفردات القرآن، وتتبع جوهره، والبحث في إعرابه خلال عصر التابعين، فقد كانت السليقة العربية تغني مجمل الصحابة عن السؤال والبحث عن ذلك، وكان من المتعذر أن نجد من ألفاظ القرآن، وإعرابه ما خفي على جمهور الصحب، وإن وجد من تلك الألفاظ ما استعصى على بعضهم، فكان العلم باللغة كالعلم بالأنساب عندهم، إن وجد منهم من توقف في شيء منه، فإن ذلك لا يخفى على جمهورهم حتى لا يعرفه أحد منهم.

لكن في عصر التابعين احتاج الناس إلى السؤال عن غريب لغة القرآن، ثم احتاجوا إلى إعرابه، وذلك بسبب عوامل ثلاثة :

1ضعف السليقة، وقد كان العرب قديما يربون أبناءهم في البادية حفاظا عليها..

2 اختلاط المسلمين العرب من الفاتحين بغيرهم من الأقوام عن طريق المصاهرة.

3دخول عامة العجم إلى الإسلام وحاجتهم لمعرفة تعاليمه..

فظهرت بذلك الحاجة إلى البحث في لغة القرآن بسبب فشو اللحن، وفساد اللسان، واهتم المفسرون منذ عصر التابعين بإعراب القرآن، وحرصوا على ذلك قبل تقعيد علم النحو؛ لإدراكهم بأن الإعراب هو الذي يقيم المعنى. وبهذا تظهر الأهمية المنهجية للتفسير اللغوي بسبب ما استدعاه الواقع الزمني الذي كان عليه التابعون؛ لما أصاب اللسان العربي من الضعف والعجمة التي دفعت باتجاه الاجتهاد في تفسير كثير من

---

[11] المرجع السابق، ج2ص885.

[12] بحوث في أصول التفسير ومناهجه، أ.د.فهد بن عبدالرحمن الرومي، مكتبة التوبة، ط4، 1419ه، ص32.

[13] المرجع السابق، ص32.

المواطن التي لم يقف عليها التابعون في تفسير الصحابة رضي الله عنهم14، ولكن لا يلزم من القول بأن التفسير اللغوي عند التابعين تعميمه على جميع مدارس التابعين وأئمتها، فقد أشار الدكتور محمد الخضيري إلى أن مشارب التابعين قد تنوعت في اعتمادهم على اللغة، وجعلها مصدراً من مصادر التفسير، لذلك لا يجزم بأن هناك مدارس تفسيرية في هذا السياق اللغوي بقدر ما هو خلاف بين أئمة تلك المدارس، وكما هو معلوم أن المدرسة المكية توسعت في تناول اللغة في التفسير، وهذا لا يسري على جميع أئمة هذه المدرسة وإنما التوسع يقتصر على مجاهد رحمه الله دون عكرمة وسعيد بن جبير، وبالنسبة للمدرسة البصرية نجد الحسن البصري وقتادة بن دعامة السدوسي كانا قد أكثر من الأخذ بهذا المنهج، ولكن ليس على الوجه الذي تناوله مجاهد15.

وفيما يأتي أنماط التفسير اللغوي عند التابعين:

أولاً: إعراب القرآن الكريم:

ومن فوائد هذا النمط من التفسير اللغوي: معرفة المعنى؛ لأن الإعراب يميز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلمين، ولقد أخرج أبو عبيد في فضائله عن يحيى بن عتيق قال: "قلت للحسن: يا أبا سعيد، الرجل يتعلم العربية، يلتمس بها حسن المنطق، ويقيم بها قراءته". قال: "حسن يا ابن أخي فتعلمْها، فإن الرجل يقرأ الآية، فيعيا بوجهها، فيهلك فيها". وعلى الناظر في كتاب الله الكاشف عن أسراره النظر في الكلمة وصيغتها ومحلها، ككونها متبدأ أو خبراً، أو فاعلاً أو مفعولاً، أو في مبادئ الكلام أو في جواب إلى غير ذلك16، ومن أمثلته:

1. قرأ أبو العالية رفيع بن مهران الرياشي المتوفى سنة 90ه (الرحمن الرحيم)، بنصبهما17، بناء على قاعدة من قواعد النحو العربي، وهو قطع التابع عن المتبوع، والمراد بها الاختصاص بالذكر لأهميته والتنويه به.

2. وجعل الضحاك بن مزاحم الهلالي المتوفى سنة 105ه مفعول تتقون في قوله تعالى: (لعلكم تتقون) محذوفاً وتقديره النار18؛ إفادة للعموم.

3. وقرأ محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة 124ه خوف في قوله تعالى: (فلا خوف عليهم)، وفي جميع القرآن بنصب خوف؛ ووجه نصب النص على العموم19.

---

[14] الاتجاه اللغوي في تفسير القرآن الكريم، عبدالرزاق إسماعيل هرماس، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، العدد 323، جمادى الآخر، 1417ه، نوفمبر، 1996م.

[15] تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة، مرجع سابق، ج2ص683.

[16] الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1426ه، ج4ص1219.

[17] المجيد في إعراب القرآن المجيد، إبراهيم محمد الصفاقسي، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس الغرب، ط1، 1401ه/1992م، ص54.

[18] المرجع السابق، ص149.

[19] المرجع السابق، ص221.

ثانياً: مفردات القرآن:

اتجهت همة المفسرين عامة ومنهم التابعون على بحث مفردات ألفاظ القرآن، لأن تحصيل معانيها هي الخطوة الأولى لمعرفة مراد الله تعالى فيما أنزل على رسوله. وقد ذكر الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوئل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع[20]، ومن أمثلته:

1. ما ذكره الخطابي عن أبي العالية وقد كان في طائفة، فسأله رجل فقال: يا ما)فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون(أبا العالية، قول الله تعالى في كتابه: هذا السهو؟ قال الذي لا يدري عن كم ينصرف، عن شفع أو عن وتر، فقال الحسن -هو البصري المتوفى 110ه-: مه، يا أبا العالية ليس هذا بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم[21].

2. ما قاله عبيدة السلماني المتوفى 72ه في قوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة): التهلكة: الهلاك. وقال: الهلاك: اليأس من الله[22]. وبيان ذلك أن الرجل يذنب، فيقول: قد بالغت في المعاصي، ولا فائدة في التوبة، فييأس من الله، فينهمك بعد ذلك في المعاصي.

3. ما ذكره ابن الجوزي في تفسيره حول مفردة (والأرحام) وقد بحثها استقراء وتتبعاً شمل طبقة الصحابة والتابعين، فقال رحمه الله: "أما قوله (والأرحام) فالجمهور على نصب الميم على معنى: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وفسرها على هذا ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، وابن زيد. وقرأ الحسن، وقتادة، والأعمش، وحمزة بخفض الميم على معنى: تساءلون به وبالأرحام، وفسرها على هذا الحسن، وعطاء، والنخعي"[23].

ثالثاً: علم الوجوه والنظائر:

ظهر لهذا العلم تسميتان: الوجوه والنظائر، والأشباه والنظائر، والغالب من هاتين التسميتين التسمية الأولى، وأول كتب الوجوه النظائر فيما استقرأه الباحثون هو

---

[20] مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق، 1430ه/2009م، ص54.

[21] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ط3، ص32.

[22] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427ه/2006م، ج3ص259.

[23] زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1404ه/1984م، ج2ص3.

كتاب مقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة 150ه24، وتظهر أهمية هذا العلم في معرفة مدلول الألفاظ وأنه لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن إلا إذا علم مدلول كل لفظ وعرف معناه وأدرك استعمالات الألفاظ، بل لا بد من فهم ذلك وإدراكه لما يترتب عليه من اختلاف في فهم العقيدة الصحيحة، واستنباط الأحكام الشرعية وإلا فقد أخطأ الفهم وبعد عن الصواب وتجرأ على القول في القرآن بغير علم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنك لن كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها. قال حماد فقلت لأيوب: أهو أن يرى له وجوها فيهاب الإقدام عليه؟ قال: نعم، هو هذا25، وقد تعرض التابعون لبحث هذا النوع من العلوم، ومن أمثلته ما ذكره السيوطي في الإتقان من روايات للوجوه والنظائر عن التابعين رحمهم الله تعالى26:

1 .ما نقله عن ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال: "كل شيء في القرآن (إفك) فهو كذب.

2 .وما نقله عنه أيضاً عن مجاهد قال: كل شيء في القرآن: (إن الإنسان لكفور) إنما يعني به الكفار.

3 .وما نقله عنه أيضاً عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، قال: كل شيء في القرآن فمعناه يقل. 4ويقدر5

المبحث الرابع: العوامل والأسباب التي جعلت التابعين يعتمدون على اللغة في تفسيرهم:

قد تقرر سابقاً أن المدارس التفسيرية عند التابعين تباينت من حيث المصادر التي اعتمدوها في مناهجهم التفسيرية، وعند الوقوف مع مصدر اللغة العربية نجد أن هناك تبايناً في الأخذ بهذا المصدر قوة وضعفاً، وقد أدركنا فيما مضى أن أكثر المدارس أخذاً بها المدرسة البصرية وعلى رأسها الحسن البصري رحمه الله، ولكن الذي لاحظه بعض الباحثين، أن الخلاف في حجم ونسبة الأخذ بهذا المصدر لم يجعله يصل إلى درجة وصفها مدرسة منهجية في التفسير بقدر ما هو خلاف بين الأئمة في هذه المدارس27، فمن المعروف سلفاً أن التابعين كلهم على حد سواء قد تتلمذوا على الصحابة رضي الله عنهم، والعربية عندهم ظاهرة بمقتضى السليقة، فيجمعهم بهذا الاعتبار علمهم ومعرفتهم بها، وإنما الخلاف جرى في تطبيقها وتنزيلها على الوقائع التفسيرية، وهذا لا يمنع من القول بأنهم يتفاوتون قطعاً في درجة إتقانها وإحسانها وإن كان يجمعهم فيها الملكة العربية.

وبناء على ذلك، فإن هناك جملة من العوامل والأسباب التي دفعت باتجاه اعتماد التابعين للغة العربية في التفسير:

---

[24] التفسير اللغوي للقرآن الكريم، د.مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، ط4، 1434ه، ص89.

[25] بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مرجع سابق، ص130.

[26] الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج3ص996.

[27] تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة، مرجع سابق، ج2ص684.

أولاً: عدم وجود نصوص تفسيرية منقولة من الصحابة رضي الله عنهم لكثير من الآيات، ومرجع ذلك استغناء الصحابة عن التفسير بحكم فهمهم للقرآن بسليقتهم العربية، فلم يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعض المواضع التي أشكلت عليهم، وقد تقدم الحديث عنها، إلا أن دخول كثير من الأعاجم في الإسلام قد مهد إلى كثير من الوقائع التي تحتاج إلى بيان تفسيري من قبل العلماء، الأمر الذي دفع باتجاه الرجوح إلى المصادر التفسيرية، وأقربها بعد التفسير بالقرآن وبالسنة، التفسير بمقتضى قواعد اللغة العربية، ومعلوم عندهم سلفاً أن التعاطي مع القرآن دون إتقان لعلوم العربية يوقع في الخطأ وسوء الفهم والانحراف، إذ باللغة تعرف معاني المفردات، وفهم الحقائق المفردة يكون باستقصاء المعاني التي دلت عليها الكلمة في آيات القرآن، علماً أن الوصول إلى هذا المقصد يستدعي الاطلاع على معاني المفردات في زمن التنزيل، ولذلك قال مجاهد منوهاً بأهمية هذا الشرط في التعامل مع الكتاب: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب[28].

ثانياً: وبسبب قلة المنقول من التفسير عن الصحابة اعتمد التابعون على معرفة لسان العرب في بناء الآراء التفسيرية، ولذلك كان الاعتماد على اللساني العربي الأثر الواضح في تفسير التابعين، علماً أن الآراء التفسيرية وخاصة في باب الغريب كانت لدى أئمة العراق أكثر منها في الحجازيين؛ ومرجع ذلك اختلاف كثير من العراقيين بالأعاجم وهذا دفع باتجاه تداخل اللسان العربي بكثير من العبارات الأعجمية التي أثر على اللسان العربي الذي احتاج معه إلى بيان الغريب من الألفاظ القرآنية بخلاف المدرسة الحجازية الذي بقي البيان العربي فيها ظاهراً[29].

ثالثاً: معرفتهم بالقرائن الحالية والمقامية التي اقترنت بالآيات القرآنية، فبحكم تتلمذهم على يد الصحابة الكرام رضي الله عنهم، علم التابعون مراد الله من الآيات بموجب هذه القرائن، ولهذا وقفوا على عادات العرب وأخبارهم في الجاهلية؛ لقرب عهدهم بهم، ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: (يا أيها الذي آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد) قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من السمر فلم يعرض له أحد، فإذ رجح تقلد قلادة شعر، فلم يعرض له أحد[30]، وأمثالها كثير[31].

رابعاً: المعرفة بأشعار العرب، حيث كانوا يعتمدون عليها استشهاداً في تفسير ألفاظ القرآن الكريم، ولا شك أن الشعر ديوان العرب كما هو المنقول عنهم، ولم يكن قليلاً في زمانهم، ومن أمثلة ذلك: ما قاله سعيد بن جبير المتوفى سنة 98ه في تفسير قوله تعالى: (وأطعموا القانع والمعتر) قال: "القانع: السائل الذي يسأل، ثم أنشد قول الشاعر:

---

[28] لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، الدكتور محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1410ه/1990م، ص192.

[29] تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة، مرجع سابق، ج2ص689.

[30] تفسير الطبري، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ج9ص468.

[31] المرجع السابق، ج2ص693 فما بعدها.

لمال المرء يصلحه فيغني مفاقره أعف من القنوع"[32].

الخاتمة

وبعد هذا التطواف الموجز مع التابعين وكيفية تعاطيهم مع القرآن الكريم في مقتضاه اللغوي، والوقوف عند مميزات تفسيرهم، وأنماطه، والأسباب والعوامل التي جعلتهم مؤهلين لاستنباط كثير من العلوم اللغوية في القرآن الكريم، يلزم الباحث في هذا الموطن بيان جملة من النتائج التي توصل إليها:

أولاً: التفسير اللغوي يعد أحد مصادر التفسير عند التابعين، وقد ظهر لنا كيف أن التابعين أسسوا علمهم عليه كأحد المناهج المعتمدة في تعاملهم مع النص القرآني.

ثانياً: أن الذي دفع التابعين إلى التفسير اللغوي فيما يظهر عدم وجود نصوص منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم، وهذا يعني أن التفسير اللغوي يعد أحد وجوه الاجتهاد في التفسير الذي تمكن منه التابعون، وهذا يستلزم التمكن من أدوات الاجتهاد والاستنباط.

ثالثاً: القيمة العليا التي تمتع بها جيل التابعين كونهم تتلمذوا على خير الأمة بعد رسولها صلى الله عليه وسلم، وهذا يعطيهم منزلة يقصر عنها غيرهم من اللاحقين، وقد تبين لنا الإحكام العلمي والمنهجي واللغوي الذي تمتعوا، ولذلك أبرز البحث جملة من المميزات والخصائص الذي اتصف بها منهجهم التفسيري.

رابعاً: أظهرت المرحلة الزمنية في عصر التابعين مدى الحاجة إلى إبراز العلاقة بين القرآن واللغة؛ لجملة مسوغات ومبررات أهمها ضعف السليقة العربية، ودخول لغة الأعاجم في اللسان العربي.

خامساً: وقف الباحث عند جملة من الأسباب والعوامل التي ساعدت التابعين على التعامل مع النص القرآني وفقاً للمقتضى اللغوي، الأمر الذي يعطي إشارة ظاهرة إلى أن التعامل مع القرآن يستلزم التمكن من علوم العربية، ويحرم التعاطي معه عند فقدها.

المراجع

إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر، الدكتور عبد الكريم بن علي النملة، دار العاصمة، الرياض، ط1، 1417ه/1996م.

[32] الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط1، 1424ه/2003م، ج10ص508.

الاتجاه اللغوي في تفسير القرآن الكريم، عبدالرزاق إسماعيل هرماس، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، العدد 323، جمادى الآخر، 1417ه، نوفمبر، 1996م.

الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1426ه

بحوث في أصول التفسير ومناهجه، أ.د.فهد بن عبدالرحمن الرومي، مكتبة التوبة، ط4، 1419ه

التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسن الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، 2000م

التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد، أ.د.عبدالغفور محمود مصطفى جعفر، دار السلام، القاهرة، ط1، 1428ه/2007م

تفسير التابعين عرض ودراسة مقارنة، الدكتور محمد بن عبدالله الخضيري، دار الوطن للنشر، الرياض

التفسير اللغوي للقرآن الكريم، د.مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، ط4، 1434ه

تفسير الطبري، مكتبة ابن تيمية، القاهرة

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427ه/2006م

الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط1، 1424ه/2003م

زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1404ه/1984م

لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، الدكتور محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1410ه/1990م

المجيد في إعراب القرآن المجيد، إبراهيم محمد الصفاقسي، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس الغرب، ط1، 1401ه/1992م

مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1425ه/2004م

مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق، 1430ه/2009م

مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، مكتبة الخانجي، القاهرة

نزهة النظر توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تحقيق د. عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، طبعة خاصة بالمحقق، الرياض، ط1، 1422ه/2001م

c. 39, İstanbul, 2010 Türkiye Diyanet Ansiklopedisi (DİA)